

الإيمان بالجزاء

أخى :

لابد للإنسان من الإيمان بالله الخالق الموجد النافع الضار اعتقادا وتنزيها وتصديقا بما وعد وأوعد جل وعلا . وتقدس ذاته عن الشبيه والنظير . وجلت صفاته عن النقص . تجلى بفضله ورحمته لمن أراد وأحب ، وظهر بعدله لمن أبعد وطرد ، فله الحمد من قبل ومن بعد .

وليعلم أخى أن ذات الله جلّت عن المثل والمثال ، لا تدرك بالحواس ، ولا تقاس بالحوادث وأرقى درجات المعرفة تقديس الذات ، والاعتراف بالعجز عن الإدراك ، والتعرف إلى الله بمعرفة صفاته وأسمائه الحسنى . وصفات الله العلى القدير ليست كصفات المخلوقين . فهى صفات كمال كلها . وأسمائه عز وجل حسنى جميعها . وكمال هذه الذات يظهر فى الجمع بين صفات الأضداد . فهو الضار النافع . والمعطى والمانع . والرحيم والجبار . فالرحمة من جماله . والجبروت فى جلاله . والجمع بين الرحمة والجبروت والجلال والجمال عين كماله . والوصول إلى إدراك هذه الصفات ، ولمس هذا الكمال ، وتقديس الذات المقدسة عن النقص والعيب لا يكون ولا يمكن أن يكون إلا عن طريق الإيمان بصفات أفعاله أولا ، ولما تعددت الصفات ، وتنوعت وتضادت ، تنوعت أفعال الصفات ، والمشاهد فى هذه الحياة الدنيا : أن الفعل الواحد تظهر فيه أفعال الصفات ؛ فالإنسان قد يعطى الصحة ، ويمنع المرض . ويمنع الصحة ويعطى المرض فى آن آخر . فهو دائر بين الخضوع قهرا بصفات الجلال أو الجمال .. إلخ . فالحمد لله رب العالمين .

وصفات الربوبية ليست خاصة بالحياة الدنيا . وإنما هى دائمة باقية مستمرة فى الحياة الدنيا والآخرة . ولو تخلفت إحدى الصفات فى الدنيا والآخرة لكان هذا نقصا وعبا . تعالى الله عن النقص والعيب . سبحانه الكبير

المتعال . ومن الوجهه الأخرى لكى تدرك صفاته وتعرف نعوت جلاله وجماله . وتؤمن به معرفة وبقينا أضفى الله على الإنسان أوصافاً . ومنحه صفات على صورة صفاته فجعله سميعاً يسمع عنه وبصيراً يبصر صفات ماله ، ومريداً ليدرك معنى الإرادة ويريد ما أراد الله . ومعطياً ومائعاً ليتعرف إلى معاني المنع والعطاء . وقد ورد فى الحديث ما معناه : « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ » أو كما قال . فإن وقف الإنسان عند صفاته وجحد نعمة ربه عليه ، وتمرد على موجدده فقد تمرد وخرج عن القصد من خلقه وإيجاده . ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى ليعرفون كما قال ابن عباس رضى الله عنهما . ولما كان الإنسان بواقع الصفات منه يميل إلى التحرر والخروج عن منطقة العبودية . حدّ الله له حدوداً ، وأمره بأوامر ، ونهاه عن أشياء ، وجعل له جزاء إما ثواباً على الطاعة ، أو عقاباً على المعصية يلقاه يوم يلقى ربه يوم القيامة أى فى اليوم الآخر . فطريق الإيمان بصفات الربوبية هنا هو الإيمان باليوم الآخر حيث فى الدنيا يتعذر على الكثير من الناس الفصل بين صفات الربوبية وصفاتهم بأنهم هنا مع صفاتهم وبصفاتهم . ولكن يوم القيامة ينقطع الإنسان عن صفاته قهراً . فلا يشاهد إلا صفات ربه . فيؤمن به قهراً إن لم يؤمن به طوعاً هنا : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ .

والنار والجنة مفعولات لصفات الربوبية هذه الصفات القائمة أزلاً وأبداً . والتي لا تزول ولا تنقطع فالجنة من أفعال صفات الجمال والفضل والرحمة . والنار من أفعال صفات الجلال والقهر والعدل . والإنسان بواقع جبلته وصفاته دعئ مغرور ليثبت لنفسه صفات ربه تفرداً وتمحوراً . ويتكر على ربه صفات فضله وعدله جحوداً ونكراناً . لذلك خلق الله النار تخويفاً للمؤمنين ليزدهم عن النكران والجحود لصفات ربوبيته ، وليظهر عدله يوم القيامة فيقيمهم على الكافرين الذين أبوا إلا الاستقلال والجحود فى الحياة الدنيا فيظهر فضل الله على المؤمنين وعدله للناس أجمعين . وخلق الجنة ليقود المؤمنين إلى طاعة الله ، والاعتراف بربوبيته وصفات رحمته وفضله . إن الله يحب صفاته ولا بد أن يتجلى على عبده بهذه الصفات فى الدنيا والآخرة ؛ حيث لا

انقطاع لصفات الألوهية . ولذلك لا بد من الجنة والنار حيث لا بد من الرحمة والعدل . والنفع والضرر . والجزاء أى الثواب والعقاب على الإنسان يكون بالواقع من الصفات الإنسانية . فعلى حسب تحرره واستقلاله وجحوده يكون بعده عن ربه واحتجابه عن صفات خالقه ، وعلى هذا يكون غضب الرب وسخطه عليه . والنار مظهر لهذا الغضب وفعل لصفة العدل . وبهذا تحدد درجته فى دركات النار . وعلى قدر اعتراف الإنسان بصفات ربه وإنكاره لصفات نفسه واستقلالها . وانقياده لخالقه ، وخوفه من صفات جلاله . ومحبته ومشاهدته لصفات جماله وفضله ورحمته . والجنة فعل لصفة الرحمة ، ومظهر لها . وعلى قدر هذا تكون درجة العبد فى الجنة . وعلى ضوء هذا الفهم يجب علينا أن نؤمن بضرورة اليوم الآخر والإيمان باليوم الآخر معناه الإيمان بالجنة والنار ، والثواب والعقاب والرحمة والعدل وعلى ضوء هذا الفهم أحسب أن الفهم السليم لقول رابعة العدوية رضى الله عنها : لا أعبد الله خوفاً من ناره ، ولا طمعا فى جنته أو ما معناه . إنها تعنى أن صفات الربوبية غيبٌ . فأمنت أولاً بأفعال الصفات فى الدنيا وأنكرت على نفسها صفاتها . وآمنت بصفات الربوبية فى الآخرة فأمنت بالثواب والعقاب . وآمنت بالجنة والنار اللذين هما من أفعال الصفات فعبدت الله فى مقام الإيمان رجاء ثوابه ، وخوف عقابه وطمعا فى جنته وخوفاً من ناره كما ورد فى حديث جبريل عليه السلام « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » وهذا مقام الإيمان . ثم لما سئل رسول الله ﷺ عن الإحسان أجاب عليه الصلاة والسلام « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ... » الحديث . أو كما قال . ثم ارتقت فى هذا المقام فبعد أن كانت مع أفعال الصفات تتجاوزت هذا المقام وارتقت عنه فعاشت مع الصفات أى مشاهدة للصفات . فَرَجَّتِ الله لأنه مَرَجُوْ فى نفسه وخافته لأنه مخوف فى نفسه . لا خوفاً من ناره ولا طمعا فى جنته فهى بهذا عبدته فى مقام الإحسان كما أشار الحديث السابق .

ويتطرق الفهم الخاطيء لقول رابعة من تصوراتنا الخاطئة وفهمنا البعيد لهذه المقامات لأننا نريد أن نضع أنفسنا فى نهاية المقام ونسينا أو ينسينا الشيطان

كيف بدأت رابعة رضى الله عنها ؟ ومتى قالت هذا القول ؟ أقالت فى بداية أمرها ؟ أم بعد المحبة والكمال والمعرفة . هذا ما يجب علينا أن نعيه ونتدبره كمؤمنين متبصرين خير من الخلط والالتباسات . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ونستغفر الله العظيم ونتوب إليه والحمد لله رب العالمين .

وإذا استعرضنا معشر الإخوان فاتحة الكتاب الكريم استطعنا بفضل الله وعونه أن نستشف منها المعانى السالفة الذكر :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ تنزيه وتقديس ومدح وثناء على الذات العلية المشار إليها بالاسم المفرد « الله » الجامع لمعاني الأسماء والصفات . صفات الجمال والجلال . هذه الصفات الكاملة الدالة جميعها وفى مجموعها على كمال الذات . ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ عوالم الدنيا وعوالم الآخرة وهما فى ذاتهما فعل لصفات الربوبية من حيث الخلق والإيجاد بدءاً . وفوق ذلك محل لظهور أفعال الربوبية إمدادا وإعداما . ومنعا وعطاء . وموتا وحياة ونشورا وتوفيقا وخذلانا فى الدنيا ، وجنة ونارا ، وثوابا وعقابا فى الآخرة . وأفعال صفات الربوبية والإيمان بها طريق إلى معرفة صفات الربوبية . ومشاهدة صفات الربوبية جمالا وجلالا سُلِّمَ إلى معرفة الألوهية بالتنزيه والتقديس والتسبيح عن الشبيه والمثال . ونفى العجز والقصور والظلم . والاتصاف بصفات الكمال التى تفرد بها الكبير العزيز المتعال ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ رحمانيته التى هى صفة ذاته اقتضت أن يكون رحيمًا . وأن يتسم كل فعل من أفعال صفات ربوبيته بالرحمة . فالصحة رحمة لمن قام بشكرها وعرف مقام ربه وقدر نفسه . والمرض رحمة لمن شاهد لطف سيده ، وبرّ مولاه . والطاعة رحمة لمن شاهد توفيقه فشكر مولاه . والمعصية رحمة لمن كشفت له عن حقيقة نفسه . وألجأته إلى سيده وأوقفته على باب ربه ذليلا منكسر الخاطر ، والدنيا رحمة لمن امتطأها إلى معرفة مولاه . والجنة رحمة لمن دخلها . والنار رحمة لمن أبعدته عن نفسه . وقربته من ربه . وهكذا الرحمة فى كل شئ شاملة غامرة خاصة وعامة واسعة ومنتشرة ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ فالتقوى طريق إلى معرفة هذه الرحمة التى وسعت كل شئ ﴿ مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ يوم الدين هو يوم الجزاء . يوم انكشاف صفات الربوبية يقينا وعبانا ﴿ يَوْمَ

يُكْشَفُ عَنْ سَائِقٍ ﴿﴾ يوم تفرد الله بالملكية لذلك اليوم يوم اعتراف الإنسان قهراً بملكية الله . وذلك على النقيض من يوم الدنيا ؛ حيث يدعى الإنسان — بواقع صفاته — الملكية والقدرة والتحرر والانطلاق . حيث ظهوره بصفاته مما يحجبه عن صفات ربه . ويوم الدين ينقطع عن صفاته ويبقى بصفات ربه . وأفعال صفاته التي منها الجنة والنار والثواب والعقاب . فمن أفنى صفاته في الدنيا بقي بصفات ربه في الدنيا والآخرة وهذا هو القرب والطريق إليه . الإيمان بفعل الصفات والثواب والعقاب والجنة والنار ؛ حيث النفس البشرية بواقع صفاتها ترغب وترهب رغبة مادية وخوفا ماديا ؛ فإذا تهذبت وارتفعت خافت وَرَجَتْ . خافت الله في صفات جلاله ، ورجته في صفات جماله . ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وعلى ضوء ما اتَّصَفَتْ به جمالاً وجلالاً وكلاً نعبدك رغبة في نعيمك ورهبة في عقابك في أول الأمر ، ثم نرتقى فنعبدك رجاء وخوفاً لكمالك .

﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بهذه الرغبة والرهبة . وبهذا الوعد والوعيد ، وبهذه الجنة والنار ، وبهذا الثواب والعقاب نستعين على أنفسنا التي لاتدرك ولا تعرف في هذا الطور إلا الماديات المشاكلة لوصفها ، وطبيعتها المتحدة معها في الخلق والحدوث حيث لا طريق إلى طاعة الله ومعرفته إلا بحمل النفس على طريقها البشرية الموصوفة بأنها أرضية . ولابد لها من الرجوع إلى أصل طبيعتها . قال تعالى ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ نرجع إلى الله بطلب الهداية ونفزع إليه سبحانه ضارعين هاتفين داعين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي عليه ربُّ العالمين بصفات جماله وجلاله . قال تعالى : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ولما كانت الهداية على هذا الصراط المستقيم متعذرة إلا على من هدى الله من عباده المؤمنين باعتبار الهداية منحة قال تعالى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الذين عرفهم به بصفات جماله وجلاله فسلكوا الطريق إليه على ضوء آثار صفاته فعاشوا بين الجمال والجلال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم الذين جحدوا صفاته سبحانه وأنكروا أفعال صفاته ، ونسبوا إلى أنفسهم وإلى غيرهم ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ وهم الذين لم يتيبنوا ولم يتضح لهم طريق الحكمة في صفاته ولم يعلموا مدلولات

صفاته فأخطئوا الطريق إليه ، وضلوا السبيل .
أعاذنا الله وإياكم من الكفر بعد الإيمان . وثبت قلوبنا على المحجة البيضاء ووقانا
شر أنفسنا والشيطان بئنه وكرمه وجوده إنه ربي ونعم النصير .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
